العـربيّة الشماليّة

(القسم الثاني)

أ. د. رفعت هزيم(*)

ثالثاً – النقوش الثمودية:

- الاكتشاف ومواقع النقوش:

كان (داوتي) Ch. Doughty أول من نسخ نقوشاً ثمودية في أثناء رحلته التي شملت تيماء وجبل حسمى ومدائن صالح (الحجر) والعلا (ديدان) في شماليِّ الجزيرة العربية عامي ١٨٧٦/ ٧٧، ونشر ما نسخه – وهو ١٣٠ نقشاً – مع نقوش أخرى آراميّة ونبطيّة عام ١٨٨٤. وتلاه (هوبر) Ch. Huber الذي زار حائل وجبل حِسْمَى وخيبر عامي ١٨٨١/ ٨٢ وعامي ١٨٨٣/ ٨٤ ونشر ما نسخه من نقوش ثمودية ولحيانية وآرامية عامي ١٨٨٤ و١٨٩١ . وكان الثالث هو (أويتنغ) J. Euting الذي نسخ في رحلته إلى مدائن صالح والعلا عامي ١٨٨٣/ ٨٤ زهاء ٩٠٠ نقشاً بلهجاتٍ مختلفة، كما نسخ بعض النقوش الثموديّة في شبه جزيرة سيناء عام ١٨٨٩. ثم نسخ الأبوان (جاسان) و(سافيناك) J. A. Jaussen & R. Savignac ٧٦٠ نقشاً في ثلاث رحلات إلى شماليِّ الجزيرة في الأعوام ١٩٠٧ و١٩٠٩ و١٩١٠، ونشرا

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

تلك النقوش في كتابهما المعروف[١]. ثم جالَ (فيلبي) St. J. B. Philby في طول الجزيرة وعرضها في أربع رحلات - إحداها مع (ريكمانز) G. Ryckmans - بين عامي ١٩٥٠ و١٩٥٣، وتمكّن من نسخ آلاف النقوش بلغاتٍ ولهجات مختلفة، وقد نشر الثموديّة منها - وهي تزيد عن تسعة آلاف نقش - (فان دين براندن) عام ١٩٥٦[٢].

أما في الأردن فكانت حصيلة المسح الذي أجراه (هاردنغ) عام ١٩٤٧ في «وادي رَم» ومواقع مجاورة ٥٢٤ نقشاً نشرها هو و(ليتمان) عام ١٩٥٢[٣]، وتابعتْ (كنغ) G. King البحث في المنطقة نفسها فتمكّنت من نسخ ١٧٠٠ نقش عامي ١٩٨٦/ ٨٧ من «وادي جُدَيد» جنوبَ معان. كما جمع قسمُ النقوش بجامعة اليرموك بضع مئات من النقوش في مواسم المسح النقائشيَ (الإبيغرافي) المتتالية بدءاً من عام ١٩٨٩ من مواقع مختلفة شملت البادية الشرقية و«باير» في جنوب شرق عمّان ووادي رم.

واستطاع (وينيت) و(ريد) نسخ مئتين من النقوش من منطقة حائل في شماليِّ السعودية عام ١٩٧٠[٤]، يُضاف إليها ما نُسخ منها من مناطق مختلفة في إطار مواسم المسح النقائشي التي تجريها دائرة الآثار والمتاحف في السعودية منذ عام ١٩٨٤.

والخلاصة أنّ النقوش الثموديّة - التي تجاوز عدد المنشور منها خمسة

---

(١) A. Jaussen et R. Savignac: Mission archéologique en Arabie, I-II, Paris, 1909, 1914.

(٢) A.van den Branden: Les Texte thamoudéenes de Philby, Vol. I.II, Louvain 1956.

(٣) G.L. Harding: Some thamudic inscriptions from the Hashmite Kingdom of Jordan, Leiden 1952.

(٤) F. Winnett & W. Reed: Ancient Records from North Arabia, Toronto, 1970.

عشر ألفاً ويمتدّ زمن كتابتها من القرن السادس ق. م إلى القرن الرابع الميلادي – تنتشر في المناطق الممتدّة من حائل شرقاً إلى تبوك غرباً ثم في جنوبيِّ الأردن حتى معان، كما عُثر على بعضها في مصر وفي شماليِّ الأردن وفي جنوبي فلسطين. وتقع التلالُ التي كُتبتِ النقوشُ على صخورها – غالباً – قرب ينابيع المياه أو أماكن التخييم أو قرب الأماكن السكنيّة.

– قراءة الخط وتصنيف النقوش:

كان (هاليفي) J. Halévy و(مولر) D. H. Müller – بعد أن درس كلٌّ منهما ما نسخه (داوتي) و(هوبر) و(أويتنغ) – السابقَيْن إلى محاولة قراءة الخط، واستطاعا قراءة مجموعةٍ من الحروف الثمودية الواضحة، ولكنهما لم يستطيعا الغوص في مضمون النقوش وفي بنائها. وقد أسهم (ليدزبارسكي) M. Lidzbarski و(هس) J. Hess و(ليتمان) و(غريمه) H. Grimme وسواهم في ذلك. ولا شك أنّ قراءة النقوش الثمودية وتفسيرها أكثر صعوبة من أخواتها الثلاث؛ لأنّها تنفرد دونهن بجواز قراءتين أو أكثر في بعض الحروف، فيصل التباين أحياناً إلى الظنّ بأنّ الكلام يتناول نقشين مختلفين، فقد قرأ (فان ديـن براندن) أحد النقوش هكذا: bdṯn ry wḥbr، وترجمه إلى: «بـ[الإلـه] دثـن الـرِّيّ والحبور» في حين قرأه (وينيت): bdṯn r(h)y w ḥbry، وترجمه إلى «بـدثن طيـور الكركي والحُبارى»، وقرأ الأول نقشاً آخر وفسّره هكذا hnhy wd scdt mḥnt mn tymġṯ أيها [الإله] نهي، الودّ (لـ) فلان (بـن) فلان، مِن (كاتب النقش) فلان»، وهو عند الثاني: hnhy cd bcdt mḥnt mn tymġṯ أيها [الإله] نهي، إنّ عَدَّ البُعد (أي حساب المسافة) هو إرهاقٌ مِن (أي لـ) فلان، وأضاف (جام) A. Jamme وجهاً ثالثاً بأن قرأ cd «عادَ» ونقل التاء من mḥnt إلى حرف الجرّ mn فأصبح mḥn فعلاً «مَحَنَ» وجعل tmn اسم علم، فصار النقش هكذا: hnhy cd

bcdt mḥn tmn tymġt «أيها [الإلـه] نهـي، عـاد فـلانٌ، (و) امـتحنَ (أي ضـربَ) فلانٌ فلاناً». بل إنّ الباحـث نفسـه يُـورد فـي أبحاثـه المتتابعـة قـراءات مختلفـة لإحدى الكلمات، فقد قرأ (ليتمان) – مثلاً – اسم علمٍ ثـلاث قـراءات: ġlb ثـم rṭb ثم blġ. غير أنّ (وينيت) كان الأوفر حظًّا بفضـل منهجـه فـي البحـث، وهـو دراسة أشكال الحروف خِطاطيًّا (باليوغرافيًّا)، وربطهـا بالأسـاليب التـي اتّبعهـا كاتبوهـا، وتقسـيم النقـوش إلـى مجموعـات اسـتناداً إلـى مواقعهـا وأنماطهـا وتسلسـلها الزمنـيّ المفتـرض، فـانتهى فـي كتابـه المنشـور عـام ١٩٣٧[٥] إلـى تصنيفها في خمس مجموعات، ولكلٍّ منها فروع، فغدا بـذلك تفسـير كثيـرٍ مـن النقوش ممكناً لأوّل مرّة. ولكنّ بعض البـاحثين – ومـنهم (ليتمـان) و(غريمـه) و(ريكمانز) و(فان دين براندن) – انتقـدوا هـذا التصـنيف؛ لأنّ بعـض النقـوش يحوي خصائص من مجموعتين، ولذا يصعب إدراجه في إحدى المجموعـات الخمس، ثم أعاد (وينيت) عام ١٩٧٠[٦] تصنيف النقوش في أربـع مجموعـات نسبةً إلى مواضع اكتشافها، فصارت تسمياتها هكـذا: المجموعـة A = التيمائيّـة، B = النجديّة، C+D = الحجازيّة، E = التبوكيّة.

– لغة النقوش:

وتشترك الثموديّة مع الصفويّة في معظم السّمات في المجالين الصـوتي والصرفي، فهي تغفل كتابة الفتحة الطويلة في آخر الكلمة أو وسـطها، نحـو: 'n «أنـا» و: hn «هُنـا» و: l' «إلـى» و: rḍ [الإلـه] «رُضـا» و: «dšr [الإلـه] ذو الشّرى» و: mnt [الإلهة] «مناة» و: ḏt «ذات»، والصوتَ المركّب -ay و au – في وسطها، نحو: qn «قـيْنٌ» و: tm «تـيْمٌ» و: s' «أوسٌ»، وتـدغم النـون فيمـا

(٥) F. Winnett: A Study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions, Toronto 1937.

(٦) F.Winnett & W. Reed: Ancient Records, pp.69-70.

بعدها في وسط الكلمة، نحو: 't «أنتَ/ أنتِ» و: 'tt «أنثى»، وتسقط النون أحياناً من حرف الجر «مِن» ومن كلمة «ابن» فيردان بإحدى الصيغتين: mn + m و: bn + b. والهاء هي أداة التعريف، نحو: hgml «الجمل»، فإذا تبعها أسماء الآلهة فهي للنداء، نحو: h'lt «أيتها اللات» و: hdšr «يا ذا الشّرى!». ولا يرد من الضمائر المنفصلة سوى ضميري المتكلم والمخاطب – اللذين سبق ذكرهما – في مستهل بعض النقوش، أما الضمائر المتصلة فهي ياء المتكلم والنون للمتكلمين والكاف للمخاطب والهاء للغائب والغائبة. وأما الاسم الموصول فصيغتاه هما d̲ «= الذال – التي تقابل ذو الطائيّة» – للمذكر و: d̲t «ذات» للمؤنث. والذال وحدها هي صيغة اسم الإشارة للمذكّر، فإذا سبقتها الباء: bd̲ = bi-d̲â فهي ترادف «هُنا»، في حين ترد d̲n لكلا الجنسين، ويرى الباحثون أنها تُنطق d̲ân للمذكر، كما في النقش: d̲n cd̲mnt «هذا فلان»، و: d̲în للمؤنث كما في النقش: d̲n ḥnkt bnt d̲lt «هذه فلانة بنت فلان». ولا تكاد أوزان الفعل وصيغه في الماضي والمضارع والأمر تختلف عن نظائرها في الصفوية، ويرد الثلاثي المضعّف بالإدغام وبغيره، نحو: ḥll +ḥl «حلَّ». ومن شواهد الفعل الناقص: rcy «رعى» و šty «شتا»، وفعل الأمر: hb «هبْ»، والفعل المبني للمجهول: ṣyd «صِيدَ» و qnṣ «قُنِصَ»، ووزن «تفعّلَ: tšwq «تشوّقَ»، واسم الفاعل: cšq «عاشق» وmḥb «مُحِبٌ». ويُجمع الاسم جمع تكسير، نحو: 'ṣṭr «أسطر، نقوش»، والمثنى كنظيره في الصفوية، نحو: hbkrtn «البِكرتان». وينتهي الاسم المنسوب بالياء، نحو: t̲mdy «ثموديّ» و: rhwy «رهويّ». وتنتهي بعض أسماء الأعلام بالميم، نحو: scdm «سعْد» و: mcdm «معدّ» و: cbdm «عبْد»، وهذه الظاهرة

- التي تُسمّى «التمييم» - معروفة في نقوش «المُسند»[٧].

- بناء النقوش ومضمونها:

وتوافق النقوش الثموديّة نظائرها الصفويّة في غلبة الضرب التذكاريّ وفي استهلال معظمها باللام - التي تقابل لام المِلْكيّة والاختصاص في الفصحى -، نحو: lydc bn whb wtšwq l'bh «لِـ يدع بن وهب وتشوّق لأبيه». لكن بعض النقوش النجديّة تستهلّ بـ nm نحو: nm tm yġṯ، في حين تستهل بعض النقوش التيمائية بـ lm نحو: lm yrf'l bn gbc، وقد ذهب الباحثون في تفسيرهما مذاهب شتّى، أرجحها مذهب (وينيت) - الذي نال موافقة (ليتمان) و(فان ديـن براندن) - إذ جعل nm و lm مترادفتين، وهما - عنده - بمعنى اللام التي ترد في كلتا المجموعتين أيضاً، فيكون مضمون النقش الأول منهما: «لـ تيم يغوث» والثاني: «لـ يرف إيل بن جبع»[٨]. ويُستهلّ عددٌ منها بالباء متبوعةً باسم إله، فيختلف الباحثون في قراءتها وتفسيرها، نحو: brḏ cn ḥn وهو عند (فان ديـن براندن) «من [الإله] رُضا العون والحنوّ/ الحنان» على حين قرأه (وينيت) هكذا: brḏw nḥn «برضا نحن»؛ لأنه يُشير - عنده - إلى صفة الخَلق لدى الآلهة. و: bnhy 'hl nr فتفسيره عند الأول «بـ(رعاية) [الإله] نهي آلُ نُورٍ»، وعند (وينيت): «بـ (خَلق) نهي أهلُ النار» لأنّ المُراد عنده الجِنّ؛ لأنهم خُلقوا من النّار![٩]. ويصاحب النقوش أحياناً رسوم الحيوانات كالجمال والخيول والوعول والبقر الوحشي

(٧) انظر ما كُتب عن لغة النقوش الثمودية في Thamud und Safa, pp.1-91: E.Littmann، و: W.W.Müller Das Frühnordarabische, pp.18-21، و: محمود الروسان: القبائل الثموديّة والصفويّة، ص٦٣-٧٩.

(٨) ذكر وينيت رأيه هذا في كتابه A Study … , 1937, p.24 ثم أكّده في بحثه A Reconsideration…, 1980, p.135.

(٩) F. Winnett , 1973, p.95-100.

والنعام للدلالة على ملكيتها أو صيدها أو لغرض التسلية فحسب، فمنها ما يبيّن ملكية الكاتب للحيوان المرسوم، نحو: lḥtl hgml «الجملُ لفلان»، ومنها ما يُشير إلى أنه صاحبُ الرسم، نحو: lḥtl hwcl «[رسمُ] الوعلِ لفلان». وترد أسماء الآلهة مستغاثاً بها، نحو: hkhl bk hsrr «أيها الإله كهل بكَ السرور»، و: lbdc bn qn d'l nmr wtšwq fhlt slm wqbll «لفلان بن فلان مِن آل فلان، وتشوّقَ، فيا أيتها اللات سلامٌ وقبول»، و: hrḏw wnhy wctrsm scdn cl wddy « يا رضا ونهي وعثتر سمين ساعدوني على ودادي».

وتختلف الثمودية عن الصفوية في عدم الاهتمام بالأنساب، فأكثرها لا يتضمن سوى اسم صاحب النقش متبوعاً أحياناً باسم أبيه، مما يشير إلى أنّ كاتبي النقوش الصفوية كانوا أقرب إلى البداوة، بينما كان بعض كاتبي النقوش الثموديّة مستقرّين في أماكن قريبة من مواقع النقوش، ويؤكد ذلك أنّ الحديث يكثر في الصفويّة عن الرّعي، وهذا قليل في الثموديّة.

رابعاً – النقوش الأحسائيّة:

– الاسم والمكان:

واضع مصطلح «الأحسائيّة» أو «الحسويّة» هو – كما ذكرنا سابقاً – (جام) A. Jamme نسبةً إلى إقليم الأحساء في المنطقة الشرقيّة من السعوديّة حيث اكتشفت هذه النقوش. «والحِسْيُ: الرّملُ المتراكم أسفله جبلٌ صلْد، فإذا مُطِرَ الرملُ نشفَ ماءُ المطر، فإذا انتهى إلى الجبل الذي أسفله أمسكَ الماءَ ومنعَ الرملُ حرَّ الشمس أنْ يُنشِّفَ الماءَ، فإذا اشتدَّ الحرُّ نُبِثَ وجهُ الرمل عن ذلك الماء فنَبَعَ بارداً عذباً، والجمع منه: الأحساء والحِسى»[١٠]، ولم يرد هذا اللفظ – فيما أعلم – في هذه النقوش، ولكنه ورد بصيغة ḥsy

(١٠) اللسان: حسا.

في النقوش الصفوية للدلالة على الموضع الذي ينزل فيه كاتبوها. وتُعدّ «ثاج» وبعض المواقع المجاورة لها هناك موطن معظم النقوش المعروفة من هذا الضرب. وإذا كانت «ثاج» - وهي تقع على بعد ٦٥ كم إلى الغرب من ميناء «الجُبيل» و١٥٠كم إلى الشمال من ميناء الظهران - قريةً منسيّة اليوم فإنها كانت قديماً ذات تاريخ حافل، فقد ذكرها عمرو بن كلثوم في الشعر الجاهلي، ثم ذكرها ذو الرمة في الشعر الأموي، وصارت في العصر الأموي ملجأً لمعارضي الدّولة كالخوارج والشّيعة والقرامطة. وذكر الهمداني أنّ «ثأج» - بالهمز - و«متالع» ماءان لتميم(١١)، ثم ذكرها ياقوت الحموي. والظاهر أنها استمدت أهميتها في العصرين الجاهلي والإسلامي من وقوعها على طريق القوافل بين بلاد الرافدين وجنوبي الجزيرة العربيّة وبين نَجْد والخليج العربي وبلاد فارس أيضاً. وقد قامت بعثة دانمركيّة بإدارة P. Glob وT. Bibby بأعمال المسح والتنقيب منذ عام١٩٥٣ في مواسم متتالية دامت عقداً من السنين في مناطق شتى على طول الساحل الشرقيّ من الجزيرة العربية شملت الكويت وقطر والبحرين والأحساء وأبو ظبي ورأس الخيمة، ثم استأنفت دائرة الآثار والمتاحف في السعودية تلك الأعمال في الأحساء في الربع الأخير من القرن العشرين في مواسم متعددة، وخصّتْ «ثاج» ببعضها، فنتج عن هذا كله العثور في التلال والمدافن والأنقاض على قطعٍ فخارية وأدوات عاجيّة ورؤوس رماح برونزيّة وهياكل عظميّة بشريّة وحيوانيّة وسواها، وانتهى الباحثون إلى أن تاريخ «ثاج» يرجع إلى ما يزيد عن ستة قرون قبل الميلاد، وأنّ استخدام الكربون ١٤ المشعّ = C 14 سيساعد في تحديد عمر الهياكل العظميّة(١٢).

(١١) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص١٨١.

(١٢) انظر: عبد الحميد الحشاش: حفرية ثاج الأثرية لعام ١٤٢٢هـ.

- اكتشاف النقوش:

أمّا تاريخ العُثور على أول نقش من النقوش الأحسائيّة فيعود إلى منتصف القرن التاسع عشر. ومن الغريب أن موقعه لم يكن في إقليم الأحساء بل في «أوروك» Uruk (الوركاء حاليًّا) في جنوبي بلاد الرّافدين! غير أنّ النصوص الأولى من الأحساء نفسها لم يبدأ ظهورها إلا بعد ذلك بعقود عندما اكتشف المندوب البريطاني في الكويت الكابتن (شكسبير) W. H. Shakespear نقشين اثنين أثناء تجواله في الساحل الشرقيّ من الجزيرة العربية عام ١٩١١ في أنقاض موقعين أثريين متجاورين هما «ثاج»؛ و«حِنّة» الذي لا يبعد عنه سوى ٩ كم شمالاً. ولمّا كانت هذه النقوش الثلاثة من شرقي الجزيرة العربية، وهي مكتوبة على شواهد القبور بالخطّ العربي الجنوبي أي «المُسند» ظنّ الباحثون أوّل الأمر أنها - من حيث التصنيف اللغوي - عربية جنوبية، ولذا نُشرتْ ضمن النقوش العربية الجنوبية في الجزء الخاص بها من «مدوّنة النقوش الساميّة»[١٣]. ولم يُكتشف في العقود الثلاثة التالية سوى بضعة نقوش في «ثاج» والمواقع القريبة منها، إذ جاء بدويٌّ بحجرٍ من «ثاج» عليه نقش إلى المندوب البريطاني في الكويت الكولونيل (ديكسون) H. Dickson قبل اندلاع الحرب العالميّة الثانية، فدفع به إلى (رايكمانز) الذي نشره عام ١٩٣٧. واستطاع (ديكسون) نفسه - بالتعاون مع زوجته - إضافة أربعةٍ منها أثناء البحث في أطلال «ثاج» عام ١٩٤٢، واكتشف الباحث الأمريكي P. Cornwall نقشين آخرين على الساحل المطل على جزيرة «تاروت» جنوبي رأس تنّورة عام ١٩٤١ ثم عام ١٩٤٥[١٤]، ثم ضمّ F. Vidal أحد العاملين في شركة

(١٣) هي النقوش CIH 699, 984 , 985، وقد جعلها Fr. Hommel معينيّة، على حين ذهب G.Ryckmans إلى أنها لحيانية.

(١٤) Cornwall P. Ancient Arabia: Explorations in Hasa, 1940- 41, in: Gj ,107, 1946.

«أرامكو» إليها - وهو ينقّب في مقبرة «عين جاوان» غربي رأس تنّورة عام ١٩٥٣ - نقشين أيضاً. ولكن الفضل في اكتشاف نحو عشرين من النقوش بين عامي ١٩٦٢و١٩٦٤ من هذه المنطقة يرجع إلى J. Mandaville وزملائه العاملين في «أرامكو». ويبدو أنّ (وينيت) كان أوّل من نبّه عام ١٩٤٦إلى أنّ هذه المجموعة من النقوش ليست من حيث لغتها عربيةً جنوبيّة، وإنْ كانت مكتوبةً بالخطّ العربي الجنوبي، فقال: «إنّ نقوش منطقة الخليج تتضمن ظواهر نقائشية ولهجيّة تبيّن استقلالها عن النقوش السبئيّة أو الحميريّة، ولكنّ استعمال ضربٍ من الخطّ الحميريّ في كتابتها يُشير إلى ارتباطها الوثيق بحضارة جنوبيّ الجزيرة العربيّة، شأنها في ذلك شأن النقوش اللحيانيّة والثموديّة والصفويّة المكتوبة بأضرب من ذلك الخطّ»(١٥). ولمّا نشر (جام) عام ١٩٦٦ النقوش التي بعث بها إليه J. Mandaville أطلق عليها التسمية الحاليّة Hasaean ويُقال أيضاً Hasaitic(١٦).

- لغتها وبناؤها:

وتختلف الأحسائيّة عن أخواتها من عدّة أوجه، أولها: حداثة العهد بها، فإذا كان اكتشاف النقوش الصفويّة والثموديّة واللحيانيّة قد بدأ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فإنّ اكتشاف معظم النقوش الأحسائية تأخّر حتى منتصف القرن العشرين، وثانيها: قلّة عدد نقوشها، فلا يزيد عددها عن ثلاثين يُراوح تاريخها - بسبب اختلاف الباحثين - بين القرنين الخامس والثاني قبل الميلاد، وهو عدد ضئيلٌ جدًّا بالمقارنة بالألوف من نقوش الأضرب الثلاثة المذكورة، وثالثها: ضِيق الرقعة التي تحتوي على النقوش، فكلها محصور في

(١٥) Winnett 1946, p.6.

(١٦) Jamme, A.: Sabaean and Hasaean inscriptions.

بضعة مواقع في إقليمٍ واحد هو المنطقة الشرقية من السعوديّة. ومعظمها من النقوش الدفنيّة التي تُستهل بلفظين تربطهما واو العطف، وهما: qbr «قبرٌ» و: wgr أو nfs، ويرى الباحثون أنّ wgr لفظ آراميّ معناه «النصب الحجريّ المصاحب للقبر»، وأنّ nfs لا يرد هنا بالدلالة المعروفة لـ «النفْس» في العربية بل بمعنى «شاهدة القبر» الذي تعرفه بعض اللغات الساميّة(*)، وهو فيها بالشين المعجمة. وهذان نقشان يمثلان هذه النقوش الدَّفنيّة، أحدهما (Ja 1044): 1) nfs w qbr lḥyh 2) n bn hncbd bn c 3) yny d̲'l scd'l «شاهدة القبر والقبر لفلان بن فلان مِن آل فلان»، والنقش الآخر (Ja 1046): 1)wgr w qbr 2) šmt' w'h̲ 3) th btšc' 4) bnt 'slm 5) bn … «نصب وقبر فلان وأخته فلانة بنت فلان بن…». وهذا نقشٌ ثالث يختلف عنهما (Ja 1052): 1) bd̲lt bn nylt ' 2) fkl ybš wṣd 3) qh m'db 'h̲ 4) h wydh wd'b «فلان بن فلان كاهن [المعبدَيْن] كذا وكذا، وفلان مؤدِّبُ أخيه فلان، [الكاتب] فلان». ويتبيّن من أسلوب هذه النقوش الثلاثة فقرُ محتواها وقلّةُ جدواها في المجال اللغويّ، فلا يرد فيها سوى اسم الميت أو الكاهن متبوعاً باسم أبيه أو أخيه واسم القبيلة، ولذا يلجأ الباحثون إلى استنتاج الظواهر اللغوية من صيغ الألفاظ الواردة في النقوش، فأسماء العلم نحو hncbd و rmhn'lt تشير إلى أنّ أداة التعريف هي hn، والضمير المتصل للغائب أو الغائبة هو h– أي الهاء، وصيغتا الاسم الموصول هما d̲= ذو و: d̲'t =ذات اللتان تردان في اللحيانية، واللفظ l' هو «آل» للدلالة على العشيرة أو القبيلة، وإذا كان اللفظ m'db «مؤدِّبٌ» عربيًّا فإن fkl' «أفكل أي كاهن» هو اللفظ الأكاديّ afkallu الذي يرد في النقوش السبئيّة واللحيانية والنبطيّة والتدمريّة(١٧).

(*) لا يقر المجمع استعمال مصطلح (السامية) ويرى استعمال (اللغات الجزيرية) أو (اللغات العروبية القديمة) بدلاً منها = المجلة.

(١٧) انظر ما كُتب عن لغة النقوش الأحسائية في: W.W. Müller: Das Frühnordarabische ., pp.25 -26

الفصحى المبكّرة:

ولمّا كانت «العربية الشمالية» تمثّل عند الباحثين مرحلةً سابقة للفصحى، مما يعني أنّ الفصحى ظهرت في زمنٍ لاحق، أضافوا مصطلحاً جديداً هو «الفصحى المبكّرة = Early Arabic » التي يُراد بها عددٌ ضئيل من النقوش، المكتشفة في بلاد الشام وشمالي الجزيرة العربية – التي كتبها عرب الشمال – يرون أن لغتها تمثّل الفصحى التي سبقت العصر الجاهلي، إنْ لم تكن هي نفسها، لولا كتابتها بخطوطٍ تختلف عن الخطّ الذي كُتبتْ به الفصحى. ويبدو أنّهم انصرفوا أول الأمر إلى البحث في مسألة أصل الخطّ العربي ونشأته، فقصروا بحثهم على بضعة نقوش توضحها في المجال الباليوغرافي، غير أنهم أدركوا أنّ نشأة الفصحى لا تتزامن مع نشأة الخطّ العربي، فثمة نصوص بالفصحى مكتوبة بخطّ المسند أو بالخط اللحياني أو بالخط النبطي، ولذا وسّعوا دائرة البحث لتشمل نقوشاً أخرى تمثّل ما سمَّوه «الفصحى المبكّرة»، وهذا بيانها حسب تسلسلها زمناً:

١ – النقشان Js 71 وJs 384: اللذان نُشرا على أنهما لحيانيان؛ لأنهما مكتوبان بالخط اللحياني، وأولهما نقش دفنيّ من الخريبة، نسخ بيستون ما تلا اسم الكاتب ونسبه فيه كما يلي:

Sḥ Šfh ʾmr blḥgr wŠ[d] snt mn ʾdy sfy fḥfr hlmfl ḏ lṯlṯ snn

وتبيّن له أنه بالفصحى، فقرأه هكذا: «سَحَّ شِفُّهُ، أمَرَ (أو: أُمِّـرَ) بالحِجْر وشَدَّ سنةً مِن أذى سَفى فخَفرَ [بـ] هالمفالي [بعدها] لثلاثِ سنين»[١٨]، ففيه لفظان لا تعرفهما اللحيانية هما أداة التعريف «ال» والفعل الماضي «خفـرَ» كما أنّ الأسلوب فصيحٌ تماماً. وفحوى النقش القصير الآخر أي Js 384 –

(١٨) Beeston 1973, PP.69-72

وهو من العلا – أنّ فلانة هي المرأة التي «بنتْ نُصباً». والدليل على أنه ليس لحيانيًّا وُرُود لفظين فيه لا تعرفهما اللحيانية وهما: «lt'=التي» و«nfs= نصب»؛ لأنه لا يرد فيها إلا بمعنى «نَفْسٌ».

٢–نقش الحجر (Js 17): وهو نقشٌ دفنيٌّ في تسعة أسطر مكتوب بالخط النبطي يرجع إلى عام ٢٦٧م، ويتحدث عن قبرٍ «ṣnch= صنعهُ» أحدهم لامرأةٍ تُدعى « rqwš= رقوش». وبالرغم من ورود ألفاظٍ نبطية مألوفة فيه، أدرك الباحثون أنه عربيٌّ، لأنّ الأسلوب في معظمه عربيٌّ خالص: hlkt fy lḥgrw… هلكتْ في الحِجر، wmn yftḥh ḥ Šy wldh ومَن يفتحه حاشا ولدها، كما أنّ بعض ألفاظه، وهي: حرف الجر وأداة الاستثناء وأداة التعريف «ال» والفعلان «صنعَ» و«هلكَ»، عربية ولا ترد في النقوش النبطية.

٣– نقش أمّ الجِمال الأوّل: وهو شاهدة قبرٍ مكتوبة بالخط النبطيّ أيضاً من قرية أمّ الجِمال شمالي الأردن قرب حدوده مع سورية:

dnh nfŠw fhrw br Šly rbw gdymt mlk tnwḥ

ومعناه: «هذا قبر فهر بن شلي مربّي جذيمة ملك تنوخ». ولمّا كان المعنيّ هنا – في رأي الباحثين – جذيمة الأبرش الذي كانت له أخبارٌ مع زنوبيا ملكة تدمر أرجعوا تأريخه إلى عام ٢٧٠م.

٤–نقش النمارة: وهو نقش في خمسة أسطر مكتوب بالخط النبطي على قبرٍ اكتشفه (دوسو) R. Dussaud في هذا الموقع جنوبي تلول الصفا عام ١٩٠١. وبالرغم من ورود ألفاظٍ نبطية فيه جعل أسلوبه الباحثين يعدّونه أقدم نصٍ بالفصحى[١٩]، وفحواه أنّ صاحب القبر هو 1)mr'lqys br cmrw mlk 'lcrb klh … 2)wmlk 'l'sdyn wnzrw wmlwkhm…4)flm yblc mlk mblch… 5) hlk

(١٩) ما عدا (ولفنسون) الذي استنتج من استهلال النقش باللفظين الآراميين nfš ty = «هذا قبر» أنّه «آراميّ أكثر منه عربيًّا»: تاريخ اللغات الساميّة، ص١٩٣.

snt 223…ylscd dw wldh « «امرؤ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم... الذي ملكَ الأسْدَيْن (=الأزْدَين) ونزار وملوكهم... فلمْ يبلغ ملكٌ مبلغه...، هلكَ سنة ٢٢٣ [بتقويم بصرى الموافق سنة ٣٢٨م]، ويا لسعد ذو (=الذي) ولدهُ»، ففصاحة الأسلوب بيّنة، ويؤكدها ورود أداة التعريف «ال» وجمع التكسير «ملوك» والفعل «هلك» والمثنّى المُعْرب «الأسْدَيْن».

٥- نقوش الفاو: المكتوبة بخط «المُسند» المكتشفة في وادي الدّواسر في هذا الموقع الذي ذُكر في النقوش باسم «قرية ذات كاهل» التي كانت عاصمةً لمملكة كندة في تلك المنطقة في القرن الثالث الميلادي، وكانت مركزاً هامًّا على طريق القوافل المتجهة من نجران إلى البحرين ثم إلى بلاد الرافدين. ويُذكر في بعض النقوش «ملك كندة وقحطان» و«ملك قحطان ومذحج»، وأحدها في عشرة أسطر وقد نشره أول مرّة عبد الرحمن الأنصاري عام ١٩٧٧[٢٠]، ويروي كاتبه أنه bn l'hh…qbr = بنى لأخيه قبراً «وكذلك wlhw wlwldhw wmr'th … , wnsyhm ḥryr … f'cdh bkhl wctr 'šrq mn czzm wwnym wšrym wmrthnm 'bdm bn wksm cdky tmṭr 'smy dm wl'rḍ šcr = لنفسه وولده وزوجته... وللنساء الحرائر...، وأعاذه بـ[الآلهة] كاهل وعشتر الشارق من [كلّ] عزيزٍ ووانٍ وشارٍ له أو مرتهنٍ أبدَ الدهر دون انتقاصٍ من قدره ما دامت السماءُ تمطر دِيَمَاً (=مطراً دائماً) والأرضُ [تنبت] شَعَراً (= نباتاً)»[٢١].

٦- نقوش جبل رم: وهي ثلاث مخربشات Graffiti قصار عثر عليها (هورسفيلد) G. Horsfield عام ١٩٣١ في معبدٍ على هذا الجبل شرقَ العقبة في

(٢٠) انظر كتابه: قرية الفاو ١٩٨٢.

(٢١) هذه قراءة بيستون وترجمته، انظر: A.Beeston: Nemara & Faw , PP.1-6.

الأردن، ونشرها مع (سافيناك) R. Savignac عام ١٩٣٥، ولم يستطع الباحثون قراءتها وتفسيرها تفسيراً واضحاً، ولذا كانت قليلة الجدوى لغويًّا، ولكنها مفيدة باليوغرافيًّا؛ لأنّهم يرون أنها تمثّل المرحلة الأخيرة من استعمال الخط النبطي ونشأة الخط العربي(٢٢)، ويرجعونها إلى منتصف القرن الرابع الميلادي.

٧-نقش زبد: وهو نقش ثلاثي اللغات على (أرشيتراف) architrave - أي القسم المجاور للإفريز - فوق مدخل كنيسة في هذا الموقع قرب بلدة «خناصر» إلى الجنوب الشرقي من حلب ؛ اكتشفه (زخاو) E. Sachau ونشره عام ١٨٨٢، وقد كُتب جزؤه العلوي بالإغريقية - وهو مؤرخ بعام ٥١٢م - والأوسط بالسريانية والسفلي بالخط النبطي، ويُستهل هذا الجزء الأخير - وهو في سطرٍ واحد - بعبارة «بنصر الإله» ويليها بضعة أسماء لرجالٍ يبدو أنهم تولَّوا بناء الكنيسة، وينتهي بكلمة مكتوبة بحروفٍ سريانية(٢٣). ويرى الباحثون أنّه عربيّ لأنّ خطّه أقرب إلى الخط العربي، وفيه أداة التعريف «ال»، كما أنّ معظم أسماء العلم فيه (شريح ومناف وسعد وامرؤ القيس) عربية.

٨- نقش أسيس: اكتشفه أبو الفرج العش في هذا الموقع بين ديرة التلول شمالاً وتلول الصفا جنوباً، ونشره عام ١٩٦٧، وهو رباعي الأسطر مكتوب بالخط العربي الناشئ الذي يُمكن قراءته بسهولة، ومصوغ بالأسلوب الموجز المألوف في كتابة البرقيات: «[أنا] إبراهيم بن المغيرة أرسلني الحارث الملك [أميراً] على حِصنه [المُسمّى] سليمان سنة ٤٢٣ [بتقويم بصرى أي: ٥٢٨م]»(٢٤). ويرى الباحثون أن المراد هنا الحارث بن

---

(٢٢) Winnett,1937 p.52-53.

(٢٣) هذه قراءة (ليتمان) في E. Littmann: Osservazioni … di Harran e di Zebed

(٢٤) أخذنا بقراءة عرفان شهيد وتفسيره في بحثٍ ألقاه في «الندوة الإقليميّة الأولى عن الكتابات في بلاد الشام حتى ظهور الإسلام» التي عُقدتْ في قسم النقوش بجامعة اليرموك عام ١٩٩٤.

جبلة أعظم ملوك الغساسنة الذي يمتد عهده من عام ٥٢٨ إلى عام ٥٦٩م.

٩-نقش حران: وهو نقش ثنائي اللغة اكتشفه (فيتسشتاين) J. Wetzstein فوق باب كنيسةٍ في هذا الموقع في منطقة «اللجا» شمالي بلدة «قنوات»، ونشره P. Schroeder عام ١٨٨٤، ويقول كاتب النصّ العربي: «أنا شرحيل بن ظالمو بنيت هذا المرطول [أي الكنيسة] سنة ٤٦٣ [بتقويم بصرى أي: ٥٦٨م] بعد مفسد خيبر بعام»، وفيه كلمتان آراميتان هما « br= ابن» و«lmrṭl' = المرطول» معرّفةً بـ«ال»[٢٥].

١٠- نقش أم الجمال الثاني: الذي اكتشفه (ليتمان) عام ١٩٠٥ مكتوباً على أحد الأحجار في كنيسةٍ هناك، فأرجعه إلى أوائل القرن السادس الميلادي، وقرأه عندما نشره عام ١٩٢٩: 1- 'llh cfr' l'lyh 2- br cbydt k'tb 3- (yqrwh) 5- cmry ṣlw clh mn 4- 'lḥbyr 'cly bny وترجمه كما يلي: «يارب! اغفرْ لفلان بن فلان الكاتب الخبير أشرف بني عمروٍ، ادعُ له أيها القارئ»[٢٦].

نتائج البحث

ويظهر من هذا العرض اتفاق الأضرب الأربعة من العربية الشمالية في معظم الظواهر في المجالين الصوتي والصرفي، ولعل أكثرها وضوحاً اشتراكها في استعمال الهاء وحدها (أو hn) أداةً للتعريف وأداةً للنداء. غير أنّ الصلة بين الصفوية والثمودية تجعلهما - من حيث اللغة والخطّ - مجموعة واحدة من النقوش، لأنّ كاتبيها يمثّلون مجتمعاً واحداً، فهم بدوٌ ينتمون إلى قبائل متجاورة

(٢٥) هذه قراءة (ليتمان) في E. Littmann: Osservazioni …di Harran e di Zebed وهو يرى أن «مفسد خيبر» يشير إلى غزو أميرٍ غسّاني. ويرى (ولفنسون) أنّ «نقش حران هو أول نصٍ جاهلي عربي كامل في كل كلماته فهو لذلك أعظم قيمةً من نقشَيِ النمارة وزبد»: تاريخ اللغات الساميّة، ص ١٩٣.

(٢٦) E. Littmann: Die vorislamische … Umm ig-Gimal II. , 1929 pp.197-204.

فيصفون معيشتهم ويعبّرون عن عواطفهم ويبتهلون إلى آلهتهم بالطريقة نفسها، مما يجعل التفريق بينهما صعباً أحياناً. ولا بدّ من الإشارة إلى التحالف القبليّ الذي ورد ذكره بصيغة šrkt tamudu في نقشٍ نبطيّ من منطقة مدين يعود إلى منتصف القرن الثاني الميلاديّ. وأغلب الظنّ أن أفراد هذا التحالف وما سبقه من تحالفاتٍ مماثلة – تقدّمَ ذكرُها – هم الذين كتبوا تلك النقوش، ولذا اتفقت لغةً وخطًّا. وقد لاحظ أحد الباحثين أنّ أسلوب المجموعة E أو التبوكيّة من النقوش الثموديّة أقرب – من حيث الخطّ وما فيها من أسماء الأعلام – إلى الصفويّة منها إلى سائر المجموعات الثموديّة، فسمّاها «الصفوية الجنوبيّة»(٢٧)، فزاد بذلك الطينَ بِلَّةً. وليس ثمة مسوّغٌ لغويّ أو خطاطيّ – فيما يبدو – لهذا التقسيم الثنائيّ أو الثلاثيّ؛ لأنّ الفروق الضئيلة بين الصفويّة والثموديّة لا تزيد عن تلك التي ذكرها الباحثون بين النقوش الديدانيّة واللحيانيّة دون أن يجعلوهما لهجتين اثنتين. أمّا الضربان الآخران فأصحابهما هم أهل المَدَر الذين أقاموا في ديدان والحِجر وسواهما في شماليّ الجزيرة العربيّة وكتبوا النقوش اللحيانية، أو في شرقيّ الجزيرة وكتبوا بخط المسند النقوش الأحسائيّة التي لا تتضح سماتها اللغوية لقلة عددها، ولذا يصعب ضمّها – من حيث اللغة – إلى اللحيانية لتكونا لهجةً واحدة تقابل اللهجة الصفوية الثمودية.

فإذا انتقلنا إلى المقارنة بين العربية الشمالية والفصحى فلا بدّ من النظر في أوجه الاختلاف التي ذكرها الباحثون بينهما في المجالين الصوتي والصرفي:

وأولها: إدغام النون فيما بعدها في وسط الكلمة tt بدلاً من ntt «أنثى» و: tn بدلاً من: tntn «ثنتان» و: bt بدلاً من bnt «بنت». وتُدغم النون بالتاء التي تليها، نحو: tẓr «انتظر» و: bt «بنتٌ» (إلى جانب bnt بدون إدغام)، وكثيراً ما

(٢٧) E.Knauf: Südsafaitisch، وانظر: G. King,1990.

تُحذف النون من «مِن» الجارّة، نحو: 'mŠn «من شانئٍ» و: mb's «من بأسٍ» في الصفوية، وتدغم النون فيما بعدها في وسط الكلمة، نحو: 't «أنتَ/ أنتِ» و: 'tt «أنثى»، وتسقط النون أحياناً من حرف الجر «مِن» ومن كلمة «ابن» فَيَرِدان بإحدى الصيغتين: mn + m و: bn + b في الثمودية، وهي ظاهرة ذكرها اللغويون المتقدمون، قالوا: «ويجوز حذف النون من «مِن» و«عن» عند الألف واللام لالتقاء الساكنين، يُقالُ: مِ الكذبِ و: مِ الآنِ»(٢٨)، ومازالت شائعة في اللهجات العاميّة اليوم، إذْ تُختصر «مِن البيتِ» – مثلاً – في النطق إلى «مِلْبيتْ».

وثانيها: انتهاء الأسماء: my و smy و mczy باليـاء، في حين أنها في الفصحى: ماءٌ و: سماءٌ و: معزاء أي مما يُسمّى «الممدود»، ولو عدنا إلى الفصحى لوجدنا أمثلة كثيرة وردت مقصورةً وممدودة، نحو: «المِينا: مرفأ السّفن، يُمدّ ويقصر، وقالوا: النَّجاء النّجاء، والنّجا النّجا أي السّرعة في السَّير فمدّوا وقصروا، و: النّجاةُ: الخلاص من الشيء، نجا ينجو نجواً ونجاءً: ممدود، ونجاةً: مقصور، ويقولون: الوَحى الوحى! والوَحاء الوحاء! يعني: البِدار البدار، فيمدّونهما ويقصرونهما». ويضاف إليها أسماء وردت مهموزةً وغير مهموزة، نحو: السَّحا والسَّحاة (بالفتح) والسِّحاءة والسِّحاية (بالكسر): ما انقشرَ من الشيء كسِحاءة النَّواة والقرطاس، و: العَباية والعباءة، و: العَظاية والعظاءة(٢٩).

وثالثها: استعمال الذال المعجمة اسماً للموصول، وقد رأينا أنها وردت في نقش النمارة، ويسمّيها النّحاة «ذو الطائيّة»؛ لأنّها كانت تستخدم اسماً موصولاً في لهجة قبيلة طيئ.

(٢٨) اللسان: «منن»، وانظر: Rabin , p. 73.

(٢٩) اللسان: «ونى» و «نجا» و «وحى».

ورابعها: عدم إثبات الحركات الطوال والصوت المركّب في الكتابة، وهذه مسألة خاصة بالخطّ وليست خلافاً لغويًّا.

وخامسها: ورود الفعل الثلاثي الأجوف بإثبات الواو أو الياء، نحو: ḥwr «حارَ» و: ḥwb «تحسّرَ» و: byt «باتَ» و: ṣyr «صار» خلافاً للشائع من هذا الضرب في الفصحى، غير أنّ أمثلةً كثيرة تُحذف فيها الواو أو الياء فتُطابق بذلك الفصحى، نحو: qm «قامَ» و: rḥ «راحَ» و: ḥr و: ḥb و: bt و: ṣr. زد على ذلك أن الأجوف الواويّ يُعامل في الفصحى أحياناً معاملة الفعل السالم، نحو: عورَ يعوَرُ فهو أعورُ و: عوِزَ يعوَزُ فهو أعوزُ و: حولَ يحوَلُ فهو أحولُ و: هَيِفَ يهيَفُ فهو أهيفُ و: صَيدَ يصيَدُ فهو أصيدُ و: غَيِدَ يغيَدُ فهو أغيدُ.

وسادسها: معاملة الفعل الناقص اليائيّ كالفعل الصحيح؛ أي بثبوت الياء، نحو: bny «بنى» و: bky «بكى» و: rcy «رعى»، وهذا معروف في بعض اللغات الساميّة كما أنه ليس غريباً عن اللهجات العامية اليوم، إذ يُنطق الناقص اليائيّ في بعضها بالكسرة الطويلة الخالصة ، نحو: بكى= bekî و: عمِيَ = cemî و: شقِيَ = šeqî.

وسابعها: أنّ الواو والياء تتعاقبان في الأجوف والناقص، نحو: cwq+ cyq «عاقَ» و: ḥyb + ḥwb (في الأجوف)، و: 'ty +'tw «أتى» و: bny + bnw «بنى» و: šty + štw «شتا» (في الناقص). وهذه الظاهرة معروفة في كليهما في الفصحى، يقولون في الأجوف: «فاحتْ ريحُ المسك تفوح وتفيح فوحاً وفيحاً...، وفاحتِ القِدْرُ تفيحُ وتفوح: إذا غلتْ»، ويقولون: «تاهَ في الأرض يتوهُ توهاً ويتيهُ تيهاً أي ذهبَ متحيّراً وضَلَّ»، ويقولون أيضاً: «طاف به الخيالُ يطوف ويطيف طوفاً وطيفاً...، وأصابه طوفٌ من الشيطان وطيفٌ

أي مَسٌّ». ويقولون في الناقص: «أبى الشيءَ يأباه ويأبيه إباءً: كرهَهُ»، ويقولون: «أثوتُ الرجُلَ وأثيتُهُ، وأثوتُ به وأثيْتُ به وعليه أَثواً وأَثياً: وشيتُ به»، ويقولون كذلك: «شجاهُ الغناءُ: إذا هيّجَ أحزانَهُ، وقد شجِيَ به يَشْجَى شَجًا». ولا شكّ أنّ تعليل هذه الظاهرة يكون بردّها إلى اختلاف اللهجات: «القِلى: البغض، تقول: قلاهُ يقليه، ويقلاهُ: لغة طيِّئ...، و: قليْتُ اللحمَ على المِقلى أقليه قلياً... و: قلوتُهُ فهو مقلوٌ: لغة، و: محا الشيءَ يَمحوه ويَمحاه محواً ومحياً، وطيِّئ تقول: محَيْته مَحياً ومحواً»(٣٠).

وثامنها: أن الثلاثيّ المضعّف يرد بالإدغام وبغيره، نحو «ḥll +ḥl «حلَّ» في الصفوية والثمودية، و: + ẓl 'ẓll «أظلَّ» في اللحيانية. ويُرجع المتقدّمون هذه الظاهرة إلى اختلاف اللهجات أيضاً، فالإدغام لتميم، ومن شواهده قول جرير، وهو تميميّ:

فغُضَّ الطَّرْفَ إنّك مِن نميرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

وفكّ الإدغام لأهل الحجاز، وقد ورد في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾ [لقمان: ١٩] و: ﴿وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي﴾ [طه: ٨١].

والوجه الأخير - وهو أهمها -: أن الهاء هي أداة التعريف وأداة النداء في العربية الشمالية، فأما استعمال الهاء أداةً للتعريف فقد حاول بعض الباحثين أن يجدوا لها نظيراً في العبريّة، وزعموا أن الصيغة الأصل هي hn لأنها ترد في بعض النقوش إذا كان الحرف التالي لها من أصوات الحلق، نحو: hn'ṣl «الأصلُ» في اللحيانية واسم العلم rmhn'lt في الأحسائية، غير أنّ شواهد كثيرة من الصفوية تدحض هذا الزعم، نحو: h'tn «الأتان» و: hḥmr «الحمار» و: hḥsy «الحِسي» و: hcr «العير». والأرجح أنّ دلالتها -

(٣٠) اللسان: باب الواو والياء.

كما قال بعضهم – كدلالة اسم الإشارة، ويبدو لي أنها مختصرة منه، والدليل على ذلك أنه يغلب أن يكون النقش مصحوباً بالرسوم، ولذا يكون المعنى الذي أراده كاتب النقش lḫtl hgml هو: «هذا الجمل لفلان»، والذي أراده كاتب النقش lslm hwcl هو: «فلان رسمَ هذا الوعل»، ومازال هذا الاستعمال شائعاً في اللهجات العاميّة حتى اليوم، ولعلّ هذا النقش الصفوي يبيّن ذلك بوضوح: ḫg lŠhyt bn bn… hfrs wdrḥl «لفلان بن فلان… الفرسُ وهذا الرَّحْلُ (أي: هذه الفرس وهذه الرّاحلة)»، فقد ورد اسم الإشارة وأداة التعريف هنا جنباً إلى جنب بالدلالة نفسها. أما سببُ إلحاق النون بالهاء فهو – فيما يبدو – الفصل بينها وبين أصوات الحلق التي تتلوها لتسهيل النطق. ويحسن أن نستعين بأسماء الأعلام المركّبة مع أسماء الآلهة في النقوش لجلاء هذه المسألة، فقد وردت أسماء العلم: whblh في اللحيانية والصفوية والثمودية (وبصيغة whblhy في النقوش النبطية)، وtmlh في اللهجات الثلاث، وscdlh في ثلاثتها أيضاً، وslh' في الصفوية والثمودية، ولا شكّ أنها كانت تنطق بصيغة الإضافة كما في الفصحى: «وهب اللهِ» و«تيم اللهِ» و«سعد اللهِ» و«أوس اللهِ» أي أن أداة التعريف فيها – وفي أضرابها – هي «ال»، والطريف أن بعض الأسماء وردت بصيغة أخرى: 'sh'lh «أوس الإله» وtmh'lt «تيم اللات» أي أن أداة التعريف فيهما هي الهاء، مما يعني استعمال كاتبي النقوش كلتا الأداتين، وأنّ اللحيانية والصفوية والثمودية – ومعها النبطية والتدمرية – عرفتْ أداة التعريف الفصحى «ال». أما استعمال الهاء أداة نداء فيُوضحها – فيما أرى – استعمال الصيغة الأخرى «hy» في الصفوية، نحو: hylt و hy'lt «أيتها اللات!» التي تطابق «هيا» في الفصحى.

أمّا مجموعة النقوش العشرة فإن المرء لا يملك بعد أن ينتهي من قراءتها إلا أن يُبدي استغرابه لتسميتها «الفصحى المبكرة»، فكيف يجوز

إطلاق تلك التسمية على نصوصٍ كُتبتْ في القرن السادس الميلادي في حين يُجمع الباحثون - عرباً ومستشرقين - على أنّ الفصحى بلغت أوج ازدهارها في العصر الجاهلي أي في القرنين الخامس والسادس!؟ فإنْ قيل: إنّ المراد هنا أنّ هذه النصوص هي أقدم نصوص مكتوبةٍ بالفصحى وصلت إلينا؛ لأنّ الأدب الجاهلي - شعراً ونثراً - وصل إلينا بطريق الرواية ولمْ يُدوّن إلا بعد ظهور الإسلام، فالردّ من وجهين: إنْ كان البحث في الخطّ أو الخطوط التي استعملت في كتابة الفصحى فهو بحثٌ خطاطيّ يتتبع المذاهب المختلفة في أصل الخط العربي ونشأته وتطوّره وصلته بالخط المسند أو بالخطين النبطي والسرياني، وهذا بحث مستقل يحتاج إلى دراسة خاصة به، وإنْ كان البحث هنا في الفصحى نفسها وليس في الخطّ أو الخطوط التي استعملت في كتابتها وتدوينها فهو لغويٌ وليس خطاطيًّا. ولمّا كان بحثنا هذا يستند إلى المعيار اللغوي فلا بد من استبعاد مخربشات جبل رم لعدم وضوحها، وأربعةٍ من النقوش (زبد وأسيس وحران وأم الجمال الثاني) لأنها من زمنٍ متأخّر، والنقش Js 384 ونقش أم الجمال الأول لأنهما لا يختلفان - لغةً وأسلوباً - عن نقوش العربية الشمالية. وهذا يعني أنّ النصّين الوحيدين اللذين يشبهان نصوص النثر في الأدب الجاهلي هما نقش النمارة ونقش الفاو، وكلاهما يعود إلى القرن الرابع. غير أنّ نقشاً نبطيًّا اكتُشِف في موقع «عبدة/ عبادة» في النقب عام ١٩٧٩ أثبت أنّ الفصحى أقدم عهداً، فقد ذكر ناشر النقش الذي توجّه به كاتبه إلى ملك الأنباط عبادة الثالث (٣٠-٩ ق. م) أنّ السطرين الرابع والخامس من أسطره الستّة مصوغان بالفصحى؛ لأنّ الكاتب - وهو عربيّ - أراد اختيار عبارات مناسبة لحماية نفسه، فلم يجد ما يناسب ذلك في النبطية، فاضطرّ إلى

الاستعانة بلغته العربية فكتب: fyfcl l' fd' wl' 'td' fkn hn' ybcn' 'lmwtw l' 'bch 'fkn hn' 'dd gḥu l' yrdn'، وفحواه بالفصحى: «فيفعل لا ابتغاء نفعٍ ولا حظوة، وإذا سعى الموتُ إلينا فإنّي لا أسعى إليه، وإذا حلّتِ البلوى فلتقصد سوانا»، ورأى الناشر أنّ تاريخ النقش بين عامي ٨٨ و١٢٦م، وأنه لا يمكن أن يتجاوز منتصف القرن الثاني؛ لأنه لم يُعثر على أي نقشٍ نبطي في ذلك الموقع بعد هذا التاريخ(٣١).

ومهما يكن منهج الباحث فينبغي أن يأخذ في الحسبان، وهو يقارن بين لهجات العربية الشمالية الأربع والفصحى المبكرة، ثم بينها وبين الفصحى أموراً جوهريّة ؛ أوّلها: أنّ النقوش لا ترجع – من حيث الزمان – إلى مدّة قصيرة؛ لأنّ أقدمها يعود إلى القرن السادس ق. م في حين يعود أحدثها إلى القرن الرابع الميلاديّ، أي أن زمنها يمتدّ ألف عام، كما أنها – من حيث المكان – تشمل رقعةً جغرافية واسعة، فلا يُمكن أن تظلّ لغتها موحّدة الخصائص، ولا بدّ من نشوء لهجات فرعيّة كما هي الحال في الفصحى وغيرها من اللغات. وثانيها: أنّ النقوش تتضمن ألوفاً من أسماء الأعلام ومئاتٍ من أسماء القبائل والآلهة والأمكنة، ولكن معجمها اللغويّ فقيرٌ جدًّا، إذْ لا يزيد عدد ألفاظ النقوش اللحيانية على ثلاث مئة – أفعالاً وأسماء وحروفاً – وهي تمثّل مملكةً دام عهدها بضعة قرون(٣٢)، ولا يتعدّى عددُ ألفاظ النقوش الصفوية – التي تجاوز عدد المنشور منها عشرين ألفاً – خمسمئة(٣٣). وثالثها: أنّ كاتبي النقوش – وهم ينتمون إلى قبائل كثيرة – لم

(٣١) A. Negev: Obodas the God , pp. 56-60، وانظر: هزيم: متى نشأت الفصحى، ص٧٨-٧٩.

(٣٢) القدرة: دراسة معجمية لألفاظ النقوش اللحيانيّة، ص ١٧٨.

(٣٣) حراحشة: الفعل في النقوش الصفوية، ص ٢٢٧.

ينالوا حظًّا من التعليم أو التدريب، ولم يكن أمامهم نموذجٌ لغوي موحّد في خصائصه الصوتيّة والصرفيّة والأسلوبيّة ليلتزموا به، وهو ما أُتيح لمن تلاهم من الكتّاب والشعراء في العصر الجاهليّ. ورابعها: أنّ كتابة النقوش - غالباً - بالصوامت وحدها، وما لحق بكثيرٍ منها من تلفٍ أو طمس، جعل معرفتنا سماتها اللغوية وأساليبها غير مكتملة. وخامسها: أنّ الغرض من كتابتها لم يكن تأريخاً أو وصفاً للمجالات المختلفة من حياة المجتمعات التي عاش فيها كاتبوها، بل كانت في الأعمّ الأغلب مخربشات Graffiti تمثّل ضرباً من اللهو والتسلية، فصارت النقوش شبيهةً باللوحات المكتوبة اليوم على شواهد القبور أو بالمنشورات التي يصوغها الباعةُ على عجل لغرض الدعاية. وإذا كان بعضهم يجعل النقوش الثمودية التي تتصدّرها الباء متبوعةً باسم إلهٍ - وقد نقلنا بعضها آنفاً - نصوصاً دينية، ويذهب إلى «أنّ بعضها ذو مضمونٍ فلسفي...، والظاهر فيها سعي كاتبيها إلى الأصالة ليتجنّبوا تكرار ما قاله غيرهم، كما أنّ معظمها لمْ يُذكر فيه أسماء كاتبيه - خلافاً للمألوف - مما يُشير إلى أنهم ينتمون إلى بيئةٍ ثقافيةٍ مختلفة»[٣٤] فهذا مذهبٌ لا يمكن قبوله، إذ يفترض أن يكون بعض الكاتبين ممن يعرفون الأديان والعقائد والفلسفة أي ممن نسمّيهم اليوم «المثقّفين»، ولا دليل عليه - فيما أرى - في الأضرب الأربعة من العربية الشمالية البتّة.

والخلاصة أنّ المرء ينتهي بعد الدّرس والتدقيق إلى مِثل ما انتهى إليه بحث «العربية في جنوب الجزيرة العربية»، فالتطابق بين الفصحى وعربية الشمال تام في المجال الصوتي، ويكاد يكون تامًّا في المجالين الصرفي والنحوي، ولكن الهوة واسعة بينهما من حيث الثراء اللغوي وتنوّع

(٣٤) F. Winnett, 1973, p98-99.

الأساليب نتيجة العوامل التي ذكرناها، ولو عُدنا - مثلاً - إلى ثمانين نقشاً صفويًّا على أحجارٍ تغطي أحد الرجوم - وهو «رجم هانئ» - في منطقة «الصفاوي» في الأردن لما وجدنا فيها سوى اسم المدفون فيه مصحوباً بالأفعال المعبّرة عن الحزن والألم: wgm وجمَ، و: wlh ولهَ، و: ndmندمَ، ولن نكون بحاجةٍ إلى المقارنة بين هذه النقوش الدفنيّة ومراثي الخنساء، بل يكفي أن نعود إلى بعض ما قالته امرأةٌ من العامّة في الرثاء، فقد روى المبرّد أن سيّد تميم الأحنف بن قيس توفي في الكوفة في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، «فلمّا دُفنَ قامت امرأةٌ على قبره - أحْسِبُها مِن بني مِنقَر - فقالت: للهِ دَرُّكَ مِن مُجَنٍّ [أي مدفون] في جَنَنٍ [أي قبر] ومُدْرَجٍ في كفن! فنسألُ الذي فجعنا بموتكَ، وابتلانا بفقدكَ أنْ يجعل سبيلَ الخير سبيلَكَ، وأنْ يوسّع لكَ في قبركَ، ويغفرَ لك يوم حشركَ، فواللهِ لقد كنتَ في المحافل شريفاً وعلى الأرامل عطوفاً، ولقد كنتَ في الحَيِّ مُسوَّداً وإلى الخليفة مُوفَداً، ولقد كانوا لقولكَ مستمعين ولِرأيكَ مُتَّبِعين»[٣٥].

* * *

المصادر والمراجع

١ - بالعربية:

- تاريخ اللغات الساميّة، إسرائيل ولفنسون، القاهرة ١٩٢٩م.

(٣٥) الكامل: ٤/ ٨٨.

- حفرية ثاج الأثرية لعام ١٤٢٢هـ، عبد الحميد الحشاش، في: الأطلال، العدد ١٦، (٢٠٠٦م) ص ٣٥-٤٨.
- دراسة معجمية لألفاظ النقوش اللحيانيّة، حسين القدرة، جامعة اليرموك/ الأردن ١٩٩٤م (رسالة ماجستير غير منشورة).
- صفة جزيرة العرب، أبو محمد الحسن بن يعقوب الهمداني، تحقيق D. H. Müller، ليدن ١٨٩١م.
- عشائر الشام، أحمد وصفي زكريا، دمشق، ط٢، ١٩٨٣م.
- الفعل في النقوش الصفوية، رافع حراحشة، جامعة اليرموك / الأردن ١٩٩٤م (رسالة ماجستير غير منشورة).
- القبائل الثموديّة والصفويّة، محمود الروسان، الرّياض، ط٢، ١٩٩٢م.
- قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام، الأنصاري، عبد الرحمن الطيب: الرياض ١٩٨٢م.
- الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرّد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وسيّد شحاته، القاهرة ١٩٥٦م.
- لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم، بيروت ١٩٦٦م.
- متى نشأت الفصحى وأين وكيف؟ في: النقوش العروبية القديمة، رفعت هزيم، (مجمع اللغة العربية / ليبيا)، طرابلس ٢٠٠٧م، ص٦٧-٨٣.
- نقوش صفائيّة جديدة من جنوب سورية، غازي علولو، دمشق ٢٠١١م.
- نقوش صفوية جديدة من «بيار الغصين»، فواز الخريشة، جامعة اليرموك ٢٠٠٢م.
- نقوش صفوية من شمالي السعودية، سليمان الذيب، الرياض ٢٠٠٣م.

٢- باللغات الأجنبيّة:

- A. Beeston: The Inscription Js 71, in:, PSAS 3 (1973) PP. 69-72.

- _____: Nemara & Faw, in: BSOAS, 42, 1979, PP. 1-6
- A. van den Branden: Les inscriptions thamoudéenes , Louvain 1950 −
- ----------: Les Texte thamoudéenes de Philby , Vol. I. II. , Louvain 1956
- W. Caskel: Lihyan und Lihyanisch, Köln 1954.
- V. Clark, A Study of new safaitic inscriptions from Jordan, Melbourn 1979.
- G. L. Harding: Some thamudic inscriptions from the Hashmite Kingdom of Jordan, Leiden 1952
- A. Jamme: Sabaean and Hasaean inscriptions from Saudi Arabia, Rome 1966.
- ----------: Lihyanite Rock Inscriptions from Wadi Muctadil , in: Miscellanees d'ancient arabe, VI , Washington 1974, pp. 1-35.
- -A. Jaussen et R. Savignac: Mission archéologique en Arabie, I-II , Paris 1909, 1914.
- JS → A. Jaussen et R. Savignac.
- E. Knauf: Südsafaitisch, in: Annual Dept. of Antiquities,Jordan,27(1983) pp. 587-596.
- G. King: Early North Arabian Thamudic E, London 1990.
- -E. Littmann : Zur Entzifferung der ṣafâ-Inschriften , Leipzig 1901.
- −−−−−−−−:Semitic Inscriptions , New York 1904.
- ---------- : Osservazioni sulle iscritioni di Harran e di Zebed, in: RSO 4, 1912.
- : −−−−−− Thamud und Safa, Leipzig 1940.
- ----------: Syria , Division IV, Semitic Inscriptions, Section C: Safaitic Inscriptions, Leiden 1943.
- ----------: Die vorislamische-arabische Inschrift aus Umm ig-Gimal, in: Zeitschrift für Semitistik VII , 1929 p. 197-204.
- W. W. Müller: Ein Grabmonument aus Nagran als Zeugnis für das Früh-nordarabische, in: Neue Ephemris für Semitische Epigraphik,

Bd. 3, hrsg. von R. Degen , W. Müller & W. Rollig , Wiesbaden 1978, pp. 149 - 158.

- ---------- : Das Frühnordarabische, in: Grundriss der Arabischen Philologie, Bd. I. , hrsg. von W. Fischer, Wiesbaden 1982, pp. 17-28.
- -A. Negev: Obodas the God, in: IEJ 36 (1986), PP. 56-60.
- W. Oxtoby: Some inscriptions from the safaitic Bedouin, New Haven 1968.
- PSAS → Proceedings of the Seminar of Arabian Studies
- -St. J. B. Philby: The Land of Midian, Londen 1957.
- -Ch. Rabin : Ancient West-Arabian, London 1951.
- Ch. Robin: Monnaies provenant de l'Arabie du nord-est, in: Semitica 24. (1974) , pp. 83 – 125
- G. Ryckmans: Neue lihyanische Inschriften aus al-cUdaib, In: R. Stiehl: Christentum am roten Meer, Bd. 1. Berlin 1971, pp. 3-40.
- F. Winnett: A Study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions , Toronto 1937.
- ----------: A Himyaritic inscription from the Persian Gulf region, in: BASOR , 102 (1946), PP. 4-6.
- ـــــــــــــ: Safaitic inscriptions from Jordan , Toronto 1957
- ----------: A Reconsideration of some Inscriptions from the Tayma Area , in: PSAS 10(1980), pp. 133-141
- F. Winnett &G. L. Harding :Inscriptions from fifty safaitic cairns, Toronto 1978
- F. Winnett & W. Reed :Ancient Records from North Arabia, Toronto 1970.
- ----------: An Archaeological-Epigraphical Survey of the Ha'il Area, in: Berytus 22(1973) ,pp. 53-100

❊ ❊ ❊